

المحاضرة العاشرة

شعر الطبيعة

هذا ميدا آخر أخصبت فيه قرائح الأندلسيين وحلّقوا في أجوائه تحليقا ؛ ولذلك عده كثير من الدارسين مناطا للتجديد وموضوعا أبدعوا فيه . وامتازوا فيه عن الشعر المشرقي من حيث أن الجديد هو انعكاس للبيئة الجديدة وتفاعل معها . فهو عند الدكتور بدير متولي حميد لون من ألوان ثلاثة تفوق فيها الأندلسيون هي :

شعر الطبيعة وشعر الحب والشعر الحزين .

ولعل بلدا عربيا لم يكثر شعراؤه من تشخيص عناصر الطبيعة على نحو ما أكثر شعراء الأندلس . وفي عصر الطوائف والمرابطين يزدهر هذا الموضوع ازدهار شعر الموضوعات الأخرى ، بحيث يؤلف نسبة عالية عند الشعراء .

فقد خرج على العرف السائد بالوقوف على الأطلال في مطالع القصائد واستهلوها بشعر الطبيعة ، ليس هذا فحسب إذ قلما يرد وصف الطبيعة مفردا عن موضوعات الشعر الأخرى ، إلا لدى عدد قليل من الشعراء . وخير من يمثل هذا الامتزاج ابن زيدون في قصيدته القافية المشهورة التي يقول فيها :

إني ذكرك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا

والروض عن مائه الفضي مبتسم كما شققت عن اللبات أطواقا

نلهو بما يستميل من زهر جال الندى فيه حتى مال أعناقا

كان أعينه إذا عاينت أرقى بكت لما بي ، فجال الدمع رراقا

ورد تألق في ضاحي منابته فازداد منه الضحى في العين إشراقا

لقد أثرت هذه القصيدة في الشعراء وتجاوز أثرها الشعراء العرب إلى شعراء الطبيعة الغربيين الذين يربطون بين الطبيعة والحب . فإذا كانت هذه القصيدة تستحوذ على اهتمام الأدباء إعجابا بها فإن من الباحثين من شخص ظاهرة تدعو إلى التأمل والدراسة تتمثل في أننا لا نكاد نجد لابن زيدون في الطبيعة الأندلسية الساحرة مقطوعة واحدة فضلا عن قصيدة كاملة تستقل بنفسها يصف فيها شيئا من مظاهر الطبيعة .

إن شعر ابن زيدون كله كما يرى الدكتور ناصر الدين الأسد يكاد يكون ألوانا من الطبيعة موشاة نسجتها يد صناع أبدعت تصوير حواشيها وإبراز نقوشها . ولكن كيف يعلل هذا الإهمال في شعره ؟

الحق إنه ليس إهمالا للطبيعة بل إننا نلاحظ تفاعل الشاعر بها حتى امتزجت بعروقه وخالطت بشاشتها روحه الشاعرة ، وعادت الطبيعة ذوبا من عواطفه وحواسه بحيث لم يكن يحس بالطبيعة ومظاهرها معزولة وحدها إحساسا منفصلا مستقلا قائما بذاته حتى يفردتها في قصائد ومقطوعات ، إنما كان إحساسه بالطبيعة جزءا من إحساسه العام بالجمال ممزوجا بإحساسه بالمرأة والشعور بها . ومن ذوب هذه الأحاسيس صاغ شعره في الغزل والتشوق والتذكر والمناجاة والشكوى والوصل والهجر .

لقد استحوذ جمال الأندلس على حواسه وجوارحه فصاح من فرط إعجابه (وا شوقي) ولم لا ؟ وهو يرى في الطبيعة صورة من صور جنة الخلد التي وعد الله عباده يوم القيامة :

يا أهل أندلس لله دركم	ماء وظل وانهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم	وهذه لو كنت خيرت أختار
لا تتقوا بعدها أن تدخلوا سقرا	فليس تدخل بعد الجنة النار

ويقول ابن اللبانة :

نزل الحيا بنزوله في معهد	ليس المسرة ربعه المأنوس
فكأنما ماء الغمام مدامة	وكان ساحات الديار كؤوس
بلد أعارته الحمامة طوقها	وكساه حلة ريشه الطاووس

وإذا أصيب الممدوح بسوء فإن الكون والطبيعة يشاركانه هذا المصاب :

شكا لشكواك حتى الشمس والقمر	وفات در الدراري الزهر ينتشر
وراحت الريح لا يذكر لها عبق	وأصبح الروض لا يندى له زهر
وقص الظل في فصل الربيع لنا	فكادت الأرض الرمضاء تستعر
والماء غاض لنا غيضا فما نبعت	عين ولا سأل في بطحائها نهر
والسحب صاحبها ذعر فما نشأت	ولا استهل لها فوق الربا مطر

ويقول ابن خفاجة في وصف الجبل :

وأرعن طماح الذؤابة بأذخ
يسد مهب الريح عن كل وجهة
يطاول أعنان السماء بغارب
ويزحم ليلا شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه
طوال الليالي مطرق في العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم
لها من وميض البرق حمر ذوائب
أصخت إليه وهو أخرس صامت
فحدثني ليل السرى بالعجائب